

حزيران بلا قتال

## فواز طرابلسي\*

### الأزرق من حزيران/يونيو ١٩٦٧

**باللون** الأزرق أتذكر حرب حزيران/يونيو ١٩٦٧. كانت السماء الحزيرية ذات زرقة صافية. وإلى الأزرق الطبيعي، أضافت التعبئة للحرب لونها الأزرق. كانت بيروت متألفة في دثارها الأزرق، فقد طلى أهلها النوافذ بالطلاء الأزرق، أو ألصقوا عليها الورق الأزرق تنفيذاً لتوجيهات "الدفاع المدني" التي قضت بالتعتيم بالأزرق تحسباً للغارات الجوية الليلية. وصار ممنوعاً على السيارات التجول ليلاً إلا إذا كانت مصابيحها مطلية بالأزرق أيضاً. وقد قيل لنا آنذاك في تفسير التعتيم بذاك اللون، بدلاً من اللون الأسود مثلاً، أن الأزرق هو اللون الذي يبدد الضوء.

وقعت علينا حرب حزيران/يونيو ١٩٦٧ ونحن في أوج الحماسة والترقب، نستدعي الحرب استدعاءً، ونردد مع فيروز والرحابنة: "الآن الآن وليس غداً". في الجامعة الأميركية، سيطر الطلاب القوميون واليساريون على الوضع. أقمنا إذاعة مفتوحة على إذاعة "صوت العرب" في "الوست هول" تبثّ الأناشيد الحماسية وأخبار المعارك والانتصارات. ونظمنا تظاهرة صاخبة، داخل الحرم الجامعي، في اتجاه السفارة الأميركية، الملاصقة للجامعة من جهة منامة الطلاب والملاعب. وبينما كانت تظاهرة شعبية تحاصر السفارة من أمام جهة "كورنيش" المنارة والبحر، كنا نحن طلاب وطالبات الأميركية، نلاقيها من داخل الحرم الجامعي، فنراشق المبنى بالحجارة، والبعض منا يقذف زجاجات "المولوتوف" الحارقة، محاولاً عبثاً إدخالها عبر النافذة الوحيدة المواجهة لنا، حيث يتلصص علينا منها أحد أفراد "المارينز" بشيء من التهكم. ومن أبرز المقنبلين طالب سيتبواً منصب رئيس حكومة لبنان في مناسبة "وطنية" شبيهة.

لأول مرة، عُقد التعاون في "المعركة القومية المقدسة" بين الطلاب القوميين واليساريين وأعضاء حزب الكتائب و"الرابطة اللبنانية"، بعد أعوام من النزاع الضاري بيننا، وخصوصاً عندما كانوا يقررون منعنا من الاحتفال بذكرى الوحدة المصرية - السورية فتتشب معارك لم تكن تخلو من الوحشية وإسالة الدماء، دماء "الرابطين" وكانوا أقلية في الجامعة. فانضم عبد الله أبو حبيب، ممثل "الرابطة اللبنانية" وحزب الكتائب، إلى عضوية اللجنة الطلابية التي أخذت تسيّر شؤون الجامعة.

أهابت الإذاعة بالطلاب التطوع للقتال، فتدفقوا بالعشرات. ولم يكادوا يصلون، فتيات

\* كاتب ومؤرخ لبناني.

وفتيان، إلى دمشق وعمّان حتى كان وقف إطلاق النار أعلن. وفي بيروت، انتهت حربنا باقتحام قوات الأمن حرم الجامعة وإخراجها الطلاب المعتصمين وإقفالها الأبواب في وجههم.

في مجموعة "لبنان الاشتراكي" قررنا إصدار بيان ينتقد دور الجيش في حراسة المصالح البريطانية والأميركية ومكاتب شركات النفط في بيروت بدلاً من قتال إسرائيل في الجنوب. تأخرت في كتابة البيان فتولى كتابته رفيق آخر. وزعنا البيان الذي وقّعناه باسم "اشتراكيون لبنانيون" على نطاق واسع وبأساليب وتقنيات متنوعة، بما فيها التوزيع الليلي تحت أبواب البيوت. من جهتي، كنت ضمن مجموعة توزيع متجولة في سيارة أميركية فارهة تحمل اللوحة الزرقاء لمجلس النواب، وتخص والد أحد الرفاق. أُلقي القبض على أحد الشباب من حيّ النبعة، وهو يوزع البيان، فأخذنا نسعى للإفراج عنه لدى مَنْ كنا نسميهم "الزعامات التقليدية" التي كنا ننتقدها بحدة في كتاباتنا والبيانات. قصدت المختارة لمقابلة كمال جنبلاط برفقة أحد الأصدقاء فلم نجده. فالتجأنا، أنا ومحمود سويد، إلى عضو قيادة الحزب الاشتراكي، محسن دلول، في "وكالة أنباء الشرق الأوسط"، فأجرى اتصالات تتعلق باعتقال رفيقنا، وبدلاً من أن يعدنا خيراً، نصحنا بأن نتواري إذا كان لنا علاقة بالأمر.

في المساء كان التحلق حول أجهزة التلفزيون الأسود والأبيض للاستماع إلى إعلان جمال عبد الناصر استقالته. قليلون وقليلات نجحوا في حبس الدموع. الشعور العارم هو الشعور بالتخلي. حالة طفلية طغت على الجميع. في اليوم التالي، توالى التظاهرات. شاركت بيروت بأوسع تظاهرات ومسيرات شعبية عرفت في تاريخها إلى ذلك الحين. انفجر الغضب الشعبي. وجدتني وسط التظاهرات والمسيرات العارمة التي تطالب جمال عبد الناصر بالعودة عن استقالته. حُطمت الواجهات الزجاجية للمحلات التي كانت ترفع يافطات بالفرنسية والإنجليزية، وأجبر سائقو السيارات الوافدة إلى العاصمة أو المتجولة فيها، على أن يخطّوا على زجاجها بالدهان الأبيض كلمة واحدة: "ناصر"، وإلاّ تتعرض سياراتهم للتحطيم.

في صباح اليوم التالي على التظاهرات، اقتادني عنصران من أفراد المكتب الثاني من شقتي في شارع مدحت باشا بالظريف إلى مكتب في شارع بدارو في بيروت. فتشوا الشقة فلم يعثروا على شيء بعد أن كنت قد نقلتُ جميع الوثائق والأوراق وآلة "الرونيو" الطباعية إلى بيت أحد الرفاق الذي يشغل أخوه منصباً كبيراً في الجيش. في التحقيق أنكرت معرفتي بالمعتقل وبالبيان، كما أنكرت معرفتي بمن يكون الطرف الذي كتب البيان وطبعه ووزعه، أو مَنْ هم "اشتراكيون لبنانيون" الذين وقّعوا عليه. لم يطل التحقيق. جاء أحد أصدقاء العائلة من وجهاء مشغرة معروف بعلاقاته الوثيقة بالمكتب وأعادني إلى الفندق العائلي في بحدون. ودّعني المحقق: هذه المرة نخليك كرمي لعين الأستاذ رفيق. وهو اسم صديق العائلة.

كان الإخلاء مؤقتاً. في صباح اليوم التالي وفد اثنان من شباب المكتب الثاني إلى الفندق طالبين بأن أرافقهما إلى بيروت. وُضعت في المقعد الخلفي لسيارة "فولكسفاغن" بيضاء، وهي ماركة مسجلة لأفراد "المكتب الثاني"، واعتُقلت في ثكنة الأمير فخر الدين قرب "الأونيسكو". بعد برهة وجيزة من إقفال باب الزنزانة الانفرادية عليّ، سمعت نقرأ على الباب. فتحت الناقذة الصغيرة لألقى الرفيق الذي عرّفني بنفسه ولم أكن أعرفه من قبل. بلّغني أن الهياج يعمّ أوساط العسكريين، وأنه تعرّض لضرب مبرح، ودوس بالأرجل، وتهديد بحرقه حياً بعد أن صُبّ عليه "الكان"، فأعطى اسمي بدلاً من أن يُفشي بأسماء رفاقه في الحي، لاعتقاده، عن حق، أن رفاق بيروت، والعلميين منهم بصورة خاصة، أقدر على تدبير أمرهم بالوساطات من سكان النبعة.

في حضرة نائب رئيس "جهاز الأمن المشترك": مَنْ أنتم لتعلمونا كيف نخوض الحرب؟ درستُ أعواماً لأتعلّم كيف أقود سرية، وتريدون تعليمنا كيف تقاد الجيوش؟ كأنه يقنع نفسه، هو المعروف بميوله الناصرية. استطرد ليشرح لي أنه بحسب اتفاقية الدفاع العربي المشتركة، إذا كان ثمة تفوق جوي عربي، فإنه يتعيّن على الجيش اللبناني التقدم في الأراضي الفلسطينية ليحتل عكا. أمّا إذا كان هناك تفوق جوي إسرائيلي، فإن دور الجيش اللبناني يقتصر على حماية حدوده.

كان صيفاً بالأزرق. والسماء أيضاً زرقاء صافية من وراء الأسلاك الشائكة. والشمس ساطعة على المربع الصغير حيث يتحرك بضعة شبان وكهل يحاولون تعريض أكبر مساحة ممكنة من أجسادهم للشمس. أيّ هدوء في هذا اليوم الحزيراني الجميل.

عندما سمحوا لي أخيراً بأن أخرج إلى التشميسية، أسرعّت إلى حنفية الماء وكوّرت يديّ الاثنتين تحتها وارتشفت الماء مرة، واثنين، وثلاثاً، أربع مرات، ثم مسحت وجهي وزفرت. وجدتهم متحلقين حولي شأنهم أمام كل معتقل جديد. وبدأت حفلة التعارف الحذرة، وكل واحد يروي روايته وهو فيها بريء ومظلوم. ثم بادرني أحدهم: وما أخبار الحرب؟

- أي حرب

ما كانوا أدركوا بعد أننا خسرنا الحرب.

- وعبد الناصر؟

- استقال ورجع عن استقالته.

رمى أحدهم قصعة الماء المعدنية أرضاً. والعكاري المتهم بتهريب الحشيشة تتم: "العرب جرب"، وبصق أرضاً. اعترف ابن عاليه المتهم بسحب مسدسه في ساحة القرية ضد أحد محازبي جنبلاط: "ما كنت حب عبد الناصر. جماعة جنبلاط هن اللي بيحبوا عبد الناصر. اليوم، أنا معه، بس، الله يسامحك يا عبد الناصر، سوّدت وجهنا قدام العالم."

صمت البعلبكي طويلاً: "بالضيعة عندي عصفور بالقفص. بعد ما أطلع من الحبس، راح أفتح له باب القفص ليطير. يا رجال، ما في أحلى من الحرية."

كأن يوسف شاهين كان جالساً بيننا عندما كتب سيناريو فيلم "العصفور".

وحده ظل صامتاً. يجلس القرفصاء وقد اتكأ بظهره إلى الجدار. هو شيخ سبعيني عجوز نحيل يرتدي جلباباً ويعتمر "عرقية" على رأسه. وكان ينصت بانتباه، ويجهد لأن يعرض كل جسمه للشمس. سألتهم عنه فقالوا: يهودي من وادي أبو جميل. ابنه في إسرائيل.

تقدمت نحوه: وأنت يا عم، بأي تهمة؟

- يا ابني، لا أحد يأتي إلى هنا وهو بريء.

ثم عاد إلى صمته. وبعد قليل، قام ومشى بتناقل. ألقى ليتناول قصعة الماء المرمية أرضاً، ومسحها بطرف جلبابه، ثم ملأها من الحنفية وتوجّه نحو المراض وأغلق الباب الخشبي بهدوء... أمّا أنا، فكأنني، وأنا أروي للمعتقلين تفصيلات ما آلت إليه الحرب، أقنعت نفسي بأن الهزيمة وقعت فعلاً. فلمّا أقفل عليّ باب الزنزانة في العشية، وضعت رأسي بين يديّ وبكيت.

سيق بي مساء إلى المحقق، وتمكنت من التملص من تهمة كتابة البيان بسبب خطأ ارتكبه الرفيق الذي كتبه، إذ ذكر أن شركة "شل" للنفط هي شركة أميركية في حين أنها بريطانية - هولندية. النافذة ذات قضبان حديد. وعلى الطاولة تقرير استرقت النظر إليه عندما خرج المحقق يتحدث عن اجتماعات تُعقد في النبعة مع ذكر أسماء الحضور واسمي بينهم. عاد المحقق وأدخل أحد السجانين. أمرني بالاستلقاء أرضاً ورفع الرجلين على كرسي. إنها الفلقة. خلعت جواربي وانتظرت الضربة من

عصا غليظة بيد الرجل. بعد أول ضربة قفز المحقق من خلف المكتب: أربأ بك عن أن تتعرض للضرب وأنت طالب جامعي ومثقف وابن عائلة وطنية. قلت لنفسني: لديهم أوامر بعدم الضرب أو التعذيب. تصلّب يا فتى.

أُفرج عني بعد عشرة أيام في ضيافة الأمير، والمثول أمام المدعي العام العسكري في المحكمة العسكرية، لا لمعارفي النفطية طبعاً، وإنما بناء على وساطات مناطقية وعائلية. والجهتان المتدخلتان لمصلحتي كانتا على طرفي نقيض من الاستقطاب السائد تجاه الموقف من الحرب، بين مَنْ يطالب بالمشاركة في القتال، ومَنْ يعتبر أن لبنان نجا من كارثة محققة، وخصوصاً بالنظر إلى ما آلت إليه المعارك.

مهما يكن، بدا الاعتقال في ضيافة الأمير فخر الدين - ولو في عزّ سطوة "المكتب الثاني" ووسط الأجواء المتوترة التي أثارها حرب حزيران/يونيو - أقرب إلى نزهة جميلة على شاطئ البحر في يوم ربيعي! ■

من منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية

## القدس مفتاح السلام

وليد الخالدي

٢٤٤ صفحة ١٠ دولارات